

السياسة والثقافة والعلم والديمقراطية

لكمال جنبلاط في مقابلة خاضعة (١٩٧٤)

أجرى المقابلة : د. خليل أحمد خليل

جنبلاط في المركز الرئيسي للحزب في بيروت .
وقد راجعها وصحّحها بنفسه وأضاف إليها ما
يلزم لنشرها .

أجرى الحوار د. خليل أحمد خليل خلال
شهر كانون الأول (ديسمبر) (١٩٧٤) ، في
سياق ندوات الأربعاء التي كان يعقدها كمال

١) لماذا الجبهة اليسارية؟

عدد من المناطق .
ج - كانت هذه الأحزاب تحاول تشويه رسالة الحزب
في مستوى دعاياتها الاقليمية .
د - حاولت أن تحصر انتشار الجبهة ، لأن التنظيم
الجهوي كان القصد منه ضم أوفر عناصر ممكنة من
الشخصيات التقدمية والأحزاب للجبهة ، ولا يمكن أن يتم
ذلك ، الا اذا كانت بعض الأحزاب اليسارية لا تريد
البروز في مقدمة الجبهة ، فهناك أحزاب لم يعد الرأي
العام اللبناني يقبلها ، أو تمنع بوجودها وباستغلالها للمركز
الأول عدداً كبيراً من الشخصيات المستقلة المناضلة أن
يدخل الى هذه الجبهة . وفي المدة الأخيرة من الاجتماعات
التي كنا ندعو إليها في الحزب ، كان معظم المدعويين
يستكفون عن الحضور ، لكي لا يقال عنهم انهم من هذا
الاتجاه ، أو ذاك ، واعتذرت بعض الشخصيات الوطنية
المناضلة عن الحضور بعد أن دخلت الجبهة . وأخذت حلقة

□ لماذا لا يسمى الحزب لتكوين جبهة مع الفئات
السياسية اليسارية وذلك ضمن برنامج عمل سياسي موحد
تقتنع به كل الفئات اليسارية ، وتكون تلك الجبهة مسؤولة
عن مواقفها أمام الجماهير ، وإذا لم يستطع الحزب أن
ينجح في ذلك ، فلماذا لا يبين موقف هذه الفئات وموقفه
بالذات حتى تزال الشكوك حول هذا الموضوع؟

□ حاولنا ان نؤسس جبهة يسارية مع بعض
الأحزاب ، ولكن وجدنا أنفسنا أمام عدة مشاكل منها :
أ - ان هذه الأحزاب كانت تحاول استغلال الحزب
التقدمي الاشتراكي لأغراضها الخاصة ، ولتوسعها .

ب - ان هذه الأحزاب كانت تحاول أن تقطع على
الحزبيين طريق الدعوة للحزب التقدمي الاشتراكي في

هذه الأحزاب لوضعها الشرعي ولدعايته ولسمعته في البلاد.

٢ - شروط التثقيف الحزبي والثورة

□ لماذا لا يبذل الجهد الكافي للتثقيف الحزبي كما في بعض الدول الاشتراكية أو كما في الأحزاب الأخرى؟
□ نحن قمنا بدور كبير في هذا الحقل. فهناك كتابات عديدة صدرت في مؤلفات توضح الفكرة التقدمية الاشتراكية، ولكن الذي كنا نشكو منه أن عدداً كبيراً من الرفاق لا يطلع ولا يقرأ ولا يناقش. طبعاً كان من الضروري تنشيط الفكرة التقدمية الاشتراكية لأنها ليست بفكرة سهلة الاستنتاج أو الاستيعاب. وصدرت عدة نشرات ودراسات في هذا المعنى، على أن العمل التثقيفي الحزبي هو عمل شخصي قبل أي شيء آخر، فيجب أن يشترك فيه العضو الحزبي ويقبل عليه، كأن يبحث عن الحقيقة بنفسه. وفي هذا الهدف، ومنذ سنتين بشكل خاص، أخذنا نقيم مثل هذه الندوات ونصدر بعض النشرات ونعممها على الفروع، ونصدر بعض الكتب والمؤلفات، التي سنطبع منها هذا العام أيضاً لأجل توضيح الفكرة التقدمية الاشتراكية.

وهناك بعض العقبات التي كانت تقف في وجهنا، في مواجهة هذا التوضيح نظراً لعدم تعمق بعض الأفراد في النظريات الاشتراكية العالمية ولعدم اطلاعهم على كتب تتناول التجارب الاشتراكية، أكان ذلك في العالم الشيوعي أم في العالم الأوروبي، في الهند مثلاً أم في بورما قبل أن تستولي عليها الديكتاتورية العسكرية وفي الصين الشعبية أم في العالم العربي. ويسود لدى البعض اعتقاد بأن هذه التجارب «مثالية»^(١) لا يمكن أن نزيد عليها أو نقص منها. وفي الواقع لا يوجد أي شيء مثالي على وجه الأرض، والا دخلنا ضمن «التفكير الطوباوي»^(٢) الذي يجد من أي نشاط سياسي ويضلل الجماهير، فالاشتراكية هي في تطور دائم ملازم لتطور العلم، وملازم لتطور التجربة ذاتها، تلك التجربة التي عاشها معظم مؤسسي الحزب التقدمي الاشتراكي عبر حرب عالمية، وخاصة بعد

الجيبة تضيق، ولم يكن المقصود، ذلك، بل كان المقصود تأسيس جبهة تنتشر في جميع مناطق لبنان وتشرك في نضالها جميع الشخصيات الوطنية اللبنانية.

هـ - بدأت تدب الخلافات في بعض الأحزاب، كالحزب الشيوعي الذي انقسم حتى اليوم إلى أكثر من ثلاث فئات. فمع أيها تريدون أن نتعامل؟ وكذلك القوميون العرب هم اليوم أكثر من ثلاث فئات، وأخذوا يجذبون في تيار للدوغماتيكية الماركسية، لا يعقل لأي يساري أن يبنه في مثل هذا المنعطف من الجيل حيث يوضع الاختبار الماركسي والنظريات الماركسية ذاتها على بساط البحث من جديد، على ضوء العلم والاختبار السياسي والاجتماعي والانساني المتراكم، في هذا المنعطف الذي تعيد فيه القوى والدول والأحزاب الشيوعية تقوم تجربتها.

و - جاءت محنة (الخامس من حزيران - يونيو ١٩٦٧)، فظهر لنا، بشكل قوي، أن بعض الأحزاب كانت «تنتظر» لتوقع بياناً، أو لتصدر حكماً بالأحداث، أن يأتيها وحي من الخارج، وأنها كانت مرتبطة ببعض العواصم، عوض أن تكون مرتبطة بشكل أساسي وجوهري بـ «الضمير القومي العربي». وكانت تدور جلسات من النقاش تستغرق الساعات لإصدار بيان بسيط توضح فيه الوجهة العربية، ليس فقط من مواجهة العدوان الصهيوني، بل من قضية قيام وبقاء «إسرائيل» كلها، من حيث هي عدوان دائم على الأرض العربية واغتصاب للأرض العربية. وذلك كان مجري، بالطبع، على ضوء ما تستوحيه هذه الأحزاب من اعتراف بعض الدول الكبرى ومنها الاتحاد السوفياتي بالكيان الاسرائيلي القائم.

جميع هذه الاعتبارات جعلتنا نعدل عن هذه الجبهة، لأنها كانت تضعف موقف الحزب وموقفنا السياسي، عوض أن تكون مصدراً للقوة، وأن تعتمد تقوية الحزب التقدمي الاشتراكي قبل أي شيء آخر. وعندما يضحى هذا الحزب ذا قوة كبيرة، سيستطيع أن يجرف بتياره جميع الأحزاب الأخرى إذا تعاون معها، ولا يعود يخالف من استغلال

أن رأينا قيام مختلف الأنظمة من نازية عنصرية^(٣) أو فاشستية كوربوراتية^(٤)، ونظام سالازار^(٥) وسواه. وعشنا أيضاً مرحلة نظريات المهاتما غاندي^(٦) وكان لنا أيضاً اطلاع على تجربة الحزب الاشتراكي في بورما^(٧) وفي شمال أوروبا وسواها. فهذه المرحلة في الواقع، وما رافقها من حروب جعلتنا نصر هذه التجربات من الداخل وأن نرى حقيقة الانسان البشري وما يتلاءم مع طبيعته الدائمة من خلال تبدلات الأنظمة والتجربات، في أوج الأزمة التي ذهب ضحيتها ربما أكثر من ٥٠ مليون بشري واجتاحت العالم بأسره. وحتى مثل هذه التجربات الفاشية التي يكون فيها الانسان قلقاً ضميرياً، يتساءل مع من الحقيقة؟ مع الديمقراطية التي تدعى «النظام» باسم «الحرية» وتدفع بجحافلها باسم الحرية؟ أم هي مع النازية؟ أم مع الفاشستية؟ أم هي مع النظام الشيوعي الذي تحالف في مرحلة معينة مع النازية والفاشستية واقتسا سويماً بولونيا الشهيدة آنذاك، ثم عادا فتحاربا، لأن الطموح النازي كان أقوى مما كان يتصوره ستالين؟ أم هي مع النظريات المسيحية التي كان يبشر بها بعض الكتاب؟ وفي أوقات الأزمة الشديدة يشعر الانسان ويفكر ويحس أكثر من الأوقات العادية. لذا جاءت فكرة الحزب تريد أن تتوافق ما أمكن مع طبيعة الانسان وما ينزع اليه بطبيعته الصالحة العنوية، وتنتظر الى هذه الطبيعة من خلال تجربة العصور. الا أنه لا يمكن لأحد أن يقول: أريد أن أهدم كل شيء وأن أبني كل شيء من جديد، لأنه علمياً لا يمكن أن نقضي على التراث، فكل أداة بين أيدينا، كل آلة نعبّر بها كاللغة ذاتها، هي نتيجة تطور يتعدى ألوف السنين. ولا يمكن لأحد أن يفكر بهدم الحضارة وبنائها من جديد دون أن يرجع من جديد الى اختيار الأولين. فهذه المواجهة للانسان الحقيقي، لا للانسان النظري، جعلتنا ندرك أن الماركسية لم تعالج في الانسان الا الناحية الاقتصادية، وأن النازية كانت تتوجه الى ما يمكن تسميته بالمواجهة البيولوجية^(٨) في الانسان أي الى العنصر البيولوجي في الانسان الذي يرث تاريخ العنصر البشري بكامله في خلاياه، ويعبر عن هذا التراث بشكل واع

وبشكل غير واع، وجعلتنا ندرك أن الأنظمة الفاشية والأنظمة الجانحة نحو الكوربوراتية تأخذ بعين الاعتبار الناحية الاجتماعية في الانسان، وأن جميع هذه النظريات، في الواقع، تقالي في مواجهتها للانسان، وأن الانسان اذا أردنا أن نراه على حقيقته، هو كائن اقتصادي واجتماعي ونفسي وبيولوجي، يرتبط بحياة السلالة البشرية وبحياة الكون بأسره. ولذا جاءت النظرية في مواجهة الأزمة الحادة وفي احتدام صراع التفكير حولها والبحث عن الحقيقة من خلالها، وأخذ يبرز في المستوى العالمي بعض كبار المفكرين الذين نظروا للأمور من جميع مواجهاتها الشاملة ولا أذكر في هذا المنحى الا الأب تيلارد شاردان^(٩) اليسوعي الذي لم يستطيع ابان حياته أن ينشر كتاباته لخطر الكنيسة الشديد عليه، والكاتب الشهير أوروبندي دوس في الهند وسواهم من المؤلفين ليس أقلهم شأنًا العالم البيولوجي هكسلي، والعالم البيولوجي الكونت دي نوي والدكتور ألكسيس كاريل، وسواهم من نظر الى الانسانية عبر هذه الأزمة نظرة تكوينية شاملة.

فالعامل التثقيفي الحزبي أصعب، في الواقع، من هذه الناحية، لأنه يتطلب منا أن ننظر الى الانسان ككل، لا كجزء، وأن نطبق الجدلية (الديالكتيك) قاعدة التناقضات التي هي أساس الحياة، والتي أبرزها علماء الهند والصين واليونان منذ أقدم العصور وطبقوها في نظرتهم للكون والحياة بشكل شامل، ولم يكتفوا بتطبيقها في الحقل الاقتصادي فقط. يجب أن ننظر الى الانسان من خلال جميع المواجهات ومن زاوية حقيقته الرئيسية. فالانسان كائن حيواني، يرتبط بالسلالة التي تطورت من طاقات المادة حتى أبرزته، وأبرزت فيه العقل، والعقل في النهاية هو تطور للفريزة الحيوانية، ونحن مرتبطون، بشكل رئيسي، بكل ما سبقنا من تراث يضم هذا التطور الشامل للحياة. نحن أبناء هذا الكون بكل ما للكلمة من قوة. وهنا أريد أن أنوّه بالأبحاث القيمة التي يجب على كل مثقف أن يطلع عليها، أبحاث ثبت من خلالها انه بإمكان ثلاثة أو أربعة مسلحين عسكريين أن يقودوا انقلاباً، ثم يسمى هذا الانقلاب «ثورة»، ولكن حتى الساعة لم

يستطيع أحد في العالم العربي أن يقوم بثورة حقيقية يكون الشعب مصدرها وانطلاقها. وهذا برهان ساطع على أن الواقع العربي ربما يتلاءم، في بعض جهاته مع أوضاع ثورية، ولكنه لم يجد بعد الأداة التي تستطيع أن تقود الجماهير إلى الثورة.

وفي لبنان لا يمكن التفكير - ربما - قبل بضع سنين، بالقيام بعمل من هذا النوع، والا فانه يكون عملاً فاشلاً لأن القوى التي تستند اليها الثورة لا تزال في طور التنظيم أو الانتظام، ولأن الجماهير لا تزال غير واعية كفاية لمصالحها الأساسية الأخيرة. الواقع اللبناني في تطور، خاصة أن «المثقفين» في هذا البلد أخذ عددهم يتكاثر بسرعة هائلة، فبلغ عددهم اليوم عشرات الألوف، ولأول مرة يتحسس «المثقف» باحساس الفئات الشعبية الكادحة، ذلك أن معظم المثقفين أخذوا يرون أنه من الصعب جداً أن تتوفر لهم سبل المعيشة في أغلب الأحيان. نحن في اتجاه سييء، بعد بضع سنوات، أسباب ثورة حقيقية، إذا عرفنا أن نستغلها على الصعيد الاجتماعي والسياسي، وإذا عرفنا أن نكون لها هيكلًا وجهازاً حزبياً قوياً وربما جبهة مع هذا الجهاز يستطيع أن يطلقها ويقودها إلى النصر. فلا يمكن التفكير - كما يفكر بعض الاخوان أحياناً - أنه إذا استطاع خمسة أشخاص أن يذهبوا إلى الجبال ويتحصنوا مع بنادقهم، ستندلع الثورة في لبنان. هذا تفكير ساذج جداً. يجب أن نكون، بادئ ذي بدء، الجهاز الثوري، وهذا الجهاز يجب أن يكون منتظماً جداً، ويجب أن يهيئ الشعب لتقبل توجيهات هذا الجهاز، ويجب أيضاً أن يتوفر انقسام القوى العسكرية في البلاد، لأنه، كما يلاحظ لينين على حق، إذا كانت القوى العسكرية هي ضد الثورة، يصعب على هذه الثورة أن تنجح. فالثورة الروسية كما تذكرون جاءت بعد انكسار روسيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى، وبعد هرب معظم الجنود الروس من الجبهة، واستغلال لينين والحزب الشيوعي الروسي لتلك القوى النظامية وإعادة تشكيلها من جديد، وانشاء خلايا حزبية في الجيش الروسي، وكادت الثورة تفشل لولا مساندة فريق من

البحرية الروسية لها.

ليست الثورة عملاً سهلاً، لأنه عندما يفاجئ الانسان الجماهير بثورة، تظل هذه الجماهير غير مكترثة بالعمل الثوري الى أن تجد الأساليب التي تمكنها من الاشتراك فيها، وكذلك فانها تظل مستنكفة الى أن تتعود على روح جديدة هي روح المجازفة والمقاتلة. ولقد خبرنا سنة (١٩٥٨) على مدى ستة أشهر، فرأينا أن النفسية الثورية تنمو كولادة الطفل لدى الجماهير. ففي البداية يكون الناس غير متحمسين وتكون قلة ضئيلة تقوم بعمل ثوري وينتظر معظم الناس نجاح أو فشل المحاولة، فإذا فشلت تحولوا الى الحكام ضدها، وإذا نجحت ولو جزئياً، تحولوا اليها منتظمين تحت لوائها الى أن يدخل، بعد فترة وجيزة، حماس المجازفة في نفوس الجماهير فتتغذى الثورة بحماس الشباب المتحمسين للفداء والتضحية. لأنه، كما تلاحظون، يكون الانسان في ظروفه العادية وفي ظل النظام الرأسمالي وحتى النظام غير الرأسمالي منصرفاً لتلبية رغباته ومصالحه الخاصة، أي أنه يكون، في الحقيقة، يعيش في نطاق ضيق من أنانيته، فيجب علينا أن ننقل بهذا الانسان الى نفسية أخرى هي نفسية المجازفة والتضحية. ففي الانسان العادي شخصيتان: شخصية تنزع الى الفداء والخير والفضيلة والارتقاء فوق مستوى الأنانية، الى العفوية (Altruisme)، وشخصية تنزع أيضاً الى العيش المرفه المطمئن، وإلى تلبية الحاجات الأنانية العادية. وأفضل تعبير للبرجوازية في هذا المجال هو هذا الاكتفاء اليومي بتلبية المصالح الفردية الأنانية الضيقة، وتفكير الانسان حسب جيبه. اذن عملية الثورة ليست عملية سهلة. يجب أن تكون ظروف الولادة معدة لها، أي أن تكون هناك أزمة وضائقة في البلد، أي لون من التناقض الحاد، وأن تتوفر نخبة لقيادة هذه الثورة، أي بشكل خاص أن يكون عدد العمال والمثقفين كبيراً نسبياً ومشتركاً في حياة الشعب.

ونأمل في هذه السنوات المقبلة أن يتطور الوضع الاقتصادي والاجتماعي بشكل مؤاتٍ لجعل مثل هذه الامكانية ممكنة، أو على الأقل لجعل الضغط الشعبي أشد

التقدمي الاشتراكي يجب أن يتعاون على الصعيد الوطني مع شخصيات عديدة تضمن على الأقل في هذا الوقت بالذات أكثرية داخلية قوية تقف في وجه الاستعمار الجديد أو القديم والصهاينة الموجودين بمؤامراتهم في لبنان والرجعية التقليدية ومن وراءها، حتى لا تحدث فجوة في الجبهة الوطنية.

٤ - من هو الحزبيُّ الصحيح؟

□□ الحزبي الصحيح هو الذي يتخذ صفة الارتباط النفسي والعقلي بمقيدة معينة، والاشتراكي يرتبط نظامياً ونفسياً بقضية وفكرة معينة. ويكون الحزبي الاشتراكي واعياً لقضيته، قادراً على استيعابها بشكل كامل وعلى التعبير عنها. وهذه المفاهيم العامة تنطبق على كل حزب اشتراكي. غير أنه يوجد عادة التباس لدى بعض الفئات القائلة بالاشتراكية دون أن تدرك مفهومها الحقيقي، والاشتراكية، بمعناها التقليدي، لها ست مواصفات:

١ - الانتاج لأجل الحاجة، لا لأجل الربح - الربح الناجم عن الاستثمار.

٢ - تكون ملكية معظم وسائل الانتاج في الأنظمة الاشتراكية للمجتمع لا للفرد، وتكون عكس ذلك في الأنظمة الرأسمالية.

٣ - تبني فكرة التصميم والخطة الاقتصادية، فالاشتراكية هي التي جاءت بفكرة التخطيط للعالم الحديث، وقد طبقت الماركسية ذلك في البلدان الشيوعية والاشتراكية الوطنية. وبين الأولين ان الذي وضع خطة وتخطيط للمجتمع هو أفلاطون في اليونان، في كتابه الشهير «الجمهورية». خطة تشمل جميع الشؤون الاجتماعية (التناسل، التقاليد، الاقتصاد، المعنويات، التربية، شؤون الدفاع) الخ...

٤ - فكرة العمل واعتماده مقياساً للانتاج البشري وترقيعه الى مستوى التجرد والتكريس، صوفية العمل هذه التي لا يمكن بدونها أن تنجح أي اشتراكية، وفق التعبير الانجيلي الشهير (من لا يعمل لا يحق له أن يأكل)، الذي وضع فيما بعد في دستور الاتحاد السوفياتي، بحيث

وأقوى حتى تتمكن من الوصول الى الحكم بشكل من الأشكال.

وأما الأساس فأعود وأكرر: هو تكوين الهيكل الحزبي الضروري للقيام بواجب النضال السلمي في معظم أوقاته، وبواجب النضال المسلح عندما تأتي الظروف وتأذن بالقيام به.

٣ - التقدمية والرأسمالية والوطنية

□ هل تعاون الحزب مع بعض الرأسماليين، ولو كان له بعض الفوائد، يعود بالضرر على النضال الاشتراكي؟

□□ يقوم نضالنا في لبنان على مستويين:

١ - مستوى وطني يجبرنا على الدفاع عن عروبة هذا البلد، وعن سياسته الخارجية العربية، وعن مبدأ عدم الانحياز

٢ - مستوى تقدمي يجبرنا على النضال من الوجهة التقدمية الاشتراكية.

هكذا نلتقي مع جميع الوطنيين المخلصين، وهي ضرورة نراها في الالتقاء معهم، الى أن يقوم في لبنان رجال آخرون يسدون هذا الفراغ.

وبكل أسف، لا يوجه الشعب اللبناني حزب قادر شامل، فقد برهن هذا الشعب على عدم قدرته على اختيار مرشحيه للمجلس النيابي كما يتوجب، وفي معظم المناطق اللبنانية، وهذا هو أحد أسباب ازمة التمثيل النيابي في لبنان. ففكرة الشعب كمطلق وأنه يستطيع كل شيء هي فكرة فوضوية. فحتى في الدول الشيوعية لولم يكن هنالك حزب شيوعي منظم يستطيع أن يقدم النخبة القائدة لكي ينتخبها الشعب بدوره كما يحدث في الدولة السوفياتية مثلاً، لما برزت هذه الدولة بهذه القوة وبهذه الفتوة.

فالايان بالشعب هكذا بشكل مطلق وبأنه يستطيع أن يفرز منه النخبة دون أن تعمل هذه النخبة على تكريس أوضاعها وعلى تعريف نفسها للشعب، بواسطة نضالها المتواصل، بواسطة التقارب من هذا الشعب وتبني مصالحه الحيوية في هذه الحياة هي فكرة خيالية، ويصعب على الشعب أن ينتخب أشخاصاً مجهولين، فالحزب

يرتبط واجب العمل بحق العيش.

٥ - فكرة التضامن البشري أي فكرة الوحدة الوظيفية ضمن المجتمع: وهي الفكرة التي ترمي الى تجسيدها التقدمية الاشتراكية: المساواة وظيفية وليست عددية. بينما نرى في النظام الرأسمالي فكرة وواقع الطبقات، ولا يمكن انتزاع الازدواجية من حياة المجتمع. اذ المهم هو ايجاد مجتمع بدون طبقات تستطيع فيه النخبة القائدة أن ترتفع الى جميع المستويات، حيث تكون مسؤولياتها وأدوارها القيادية وفقاً لكفاءاتها الطبيعية والمكتسبة.

هذا المجتمع هو سليم من ناحية التطور، لأنه لا يوجد مساواة مطلقة بين البشر، فهم يولدون غير متساوين، وفكرة التنوع هي من ضمن فكرة التطور البشري، فاذا تجمدت هذه النخبة في مرحلة معينة وتجمدت على ذاتها وانعدمت منها الكفاءة، يحتل توازن المجتمع وتندلع فيه الثورة كما يحدث في المجال النباتي: عندما يحدث كبت لبعض المكنات تأتي قفزة معينة أو تطور سريع مفاجيء (Mutation). فتتحقق المكنات المكبوتة هو الثورة.

٦ - توزيع الدخل القومي: في المرحلة الاشتراكية الماركسية وفق استحقاق الشغل أو المواطن، وفي المرحلة الماركسية الشيوعية وفق الحاجة. وفي الحقيقة يصعب التمييز بين الاستحقاق والحاجة. وقد اعتمد الحزب تطبيق المبدأين في آن واحد: توزيع الدخل وفق الاستحقاق والحاجة.

٥ - دور الحزب في تغيير لبنان

□□ كان لا يمكن للحزب أن يجترح صراعاً سياسياً أو حركة سياسية منفصلة عن واقع المجتمع اللبناني، وكما حدث بالنسبة لانتشار المسيحية في البدء بين صيادي الأسماك، وانتشار الاسلام في صفوف الفقراء، كذلك هو الأمر بالنسبة للأحزاب السياسية. ولا يمكن أن نغير المجتمع الا على مدى طويل وبعمل حثيث حتى بعد قيام الحزب بتسلم الأحكام.

وكان دور حزبنا هو المساهمة الفعلية في تغيير لبنان،

بطرح أفكاره وشعاراته وبممارسة ضغوطاته على الدولة، أو بواسطة الفكر ذاته، لأن الفكر هو أضخم قوة في تغيير المجتمع اذا ما عرفنا كيف نغير الناس من داخلهم. ولا يمكن الانفلات كلياً من تقاليد المجتمع والا فاننا سنعود الى حقبة الانسان المتوحش. فالحضارة والجماعة هما اكتساب دائم ومتصل. فالجماعة تشمل جميع اختبارات وتصرفات الأفراد والهياكل داخل هذه الجماعة، نحن جزء من الانسان التاريخي. هذا الانسان التاريخي تجمع فيه التراث منذ ألاف السنين، ونستطيع أن نجعل التراث يتطور بالاضافة اليه. فيجب تشذيب التقليد وتنقيته وتطويره لا محوه.

وأحياناً يتوجب علينا ان نتعاون مع الفئات السياسية التقليدية لكي يتفاهم الصراع ويرتفع الى مستوى عقيدتي، وأحياناً نحاربها أو نجذبها الى قسم ضئيل من أفكارنا، وهكذا سيظل الأمر حتى يصبح الحزب جهازاً قوياً يستقطب الجماهير اللبنانية حوله، بدون معونة أحد.

٦ - في الانتاج الاشتراكي

□□ الانتاج لأجل الحاجة في الحضارات أو الدول الصناعية المتطورة لم يعد صحيحاً، لأن أكثر المجتمعات تتحول في مرحلة ما بعد الصناعة العادية، وتنتقل الى المرحلة الاستهلاكية، بحيث انه كلما ارتفع استهلاك الفرد ارتفع دخله. ولم يكن الاشتراكيون ولا ماركس في السابق، يرتقبون هذا اللون من ألوان التطور الذي طرأ على الانتاج في المجتمع الرأسمالي. وما كانوا يدركون أننا سنصل الى عهد يتعدى ما شاهدوه في انكلترا وسواها في القرن التاسع عشر. ومن هذه الناحية كان تفكيرهم مرتبطاً بعصرهم.

وفي المجتمع الاشتراكي يمكن توجيه قسم من الانتاج الى حاجات الانسان الضرورية. وعندما يكون ثمة نقص في بيوت السكن، يوجه قسم من الانتاج نحو ذلك. ولا يوجد في المجتمعات الاشتراكية مثل هذا النقص الا في المرحلة الأولى من مراحل الاشتراكية، وأما في المرحلة المتطورة من الاشتراكية فان الدولة ترد على حاجات المواطنين.

بلغ دخل الولايات المتحدة سنة ٦٦ ٣٥٪ من دخل العالم
بلغ دخل الاتحاد السوفياتي سنة ٦٦ ١٥٪ من دخل العالم
بلغ دخل الصين الشعبية سنة ٦٦ ٤٪ من دخل العالم .
ضمن هذا التفاوت في الدخل، تصبح الولايات المتحدة قوة اقتصادية وقوة عسكرية لا يمكن للحاق بها^(١٠).

٧ - حقيقة الديمقراطية في لبنان؟

□□ ان مفهوم الديمقراطية المطبق في لبنان ربما لم يعد، في الواقع، له مثيل في معظم بلدان الديمقراطية الغربية بوجه عام وفي أميركا وآسيا وأفريقيا، فقد سعت معظم البلدان الى تبديل هذا المفهوم للنظام البرلماني التقليدي، وكانت آخر هذه الدول التي أدخلت التعديلات الرئيسية في فرنسا حين جاء ديغول بمفهوم «الجمهورية الخامسة» وسعى الى تقوية السلطة التنفيذية وخلق مؤسسات جديدة تعبر عن آراء الفئات الاقتصادية والاجتماعية الى جانب حكم برلماني تمثيلي.

بدأ الناس يرون ما كنا نراه. فالديمقراطية البرلمانية ليست ذات جدوى في تطوير الأوضاع العامة، دون وجود رجل قوي يستند الى قوى منظمة، ويفرض بعض الاصلاحات الجوهرية انطلاقاً من سياسة تخطيطية في حقل تجهيز البلاد بالماء والكهرباء والطرق والضمانات الاجتماعية... الخ. فالمطلوب والذي يجب أن يحصل هو تبديل الدستور اللبناني وفق الأسس العامة المعمول بها في معظم بلدان العالم التقدمية المتطورة. نحن ضمن نظام برلماني فوضوي، لا يمكن الحكومات من البقاء أكثر من أربعة أو ستة أشهر، وأحياناً بضعة أيام، وهذا النظام لا يمكن النخبة من التوصل الى تمثيل الشعب في المجلس النيابي، وبالتالي لا يمكن من التوصل الى مستوى الحكم في البلاد، كما أن الحواجز الطائفية تجعل التمثيل البرلماني غير صحيح في معظم الحالات.

وللحافز الشخصي أهمية كبرى في حقل الانتاج الفردي. يجب أن نأخذ البشر كما هم: انهم مزيج من حب الذات وحب الغير (من الأنانية الغيرية)، ونحن لسنا في مجتمع ملائكي، وحتى بين الملائكة توجد الأنانية (لنراجع الانجيل والقرآن، وقصة الملاك ابليس) والتنوع في التطور يبرز الفردية والشخصية وهي تعكس في بعض مراحل نموها هذه الأنانية.

وفي مرحلة معينة من مراحل نمو الاشتراكية، يعمل معظم الناس بدافع الثورة أو بدافع الروح الغيرية، وأحياناً تضطر السلطة الاشتراكية الى استعمال العنف. ولكي يعمل الانسان يجب أن نجد له الحوافز المعنوية والمادية. ولذا يحرصون في المجتمعات الاشتراكية على أن لا يباشروا فوراً بالتعاونيات، لأنها تستلزم تهذيباً خاصاً وتوفيقاً بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة. ويتأكد ازدهار التعاونية في توزيع نتيجة الأرباح بين الأفراد كل في مستواه، وبعد أن يحسم قسم من الأرباح لفوائد وضمانات اجتماعية تشمل جميع أعضاء التعاونية. والفكرة التعاونية تحل مشكلة التطبيق الاشتراكي لأنها تجمع بين مصلحة الفرد والجماعة. ولذا يشدد الحزب التقدمي الاشتراكي على فكرة التعاون في الاشتراكية.

والاشتراكية لا تمنع تكديس الأرباح. هناك في الاتحاد السوفياتي فئة من هذا النوع، وما يمنع هو تدمير هذه الأرباح في مؤسسات استثمارية. ونجد هذه الأرباح بوضع ضرائب دخل. والانسان يفكر معظم الأحيان حسب المال الذي يكون في جيبه، فكلما زاد ماله انقلب تفكيره وتدرج نحو البرجوازية. هنا برز الخلاف العقائدي بين الصين والاتحاد السوفياتي، وهو ليس وليد اليوم، بل سبق اليه افلاطون وأرسطو: المستوى الاقتصادي الوسط هو المطلوب للفرد، فالفقر يؤخر الانسان والغنى يجعله غير قادر على المحافظة على انسانيته الحقيقية؛ نحن نقول في الحزب مجتمع الكفاية والعدل. فهل نستطيع أن نعيش ضمن الأفكار الأفلاطونية والمائتسية حتى بداية القرن المقبل، وقد تجاوزت أوروبا وأميركا المرحلة الصناعية؟

٨ - مفهوم فكرة التجمع البشري

□□ ان الانسان لا يمكنه عملياً أن يولد وحيداً، فهو وليد المجتمع دائماً وأبداً. ومعظم النظريات العلمية لم تعد تقول بوجود آدم واحد وحواء واحدة في البدء كما ذكر في التوراة. بل أنها تقول أنه كان في آن واحد عدة فصائل بشرية على وجه الأرض، عدة أودام (Polygenisme) استطاعت أن تخرج الى حيز التطور وأن تبرز، وكانت الجماعة البشرية قائمة.

في المجتمعات البشرية الأولى لم يكن يوجد جماعات مترابطة نظراً للوضع المتأخر الذي كانت تعيش فيه، وتعتمد على صيد الحيوانات وقطف الثمار، وتلك بداية العصور الاولى، ثم تطورت المجتمعات البشرية الى عصر الزراعة الذي بدأت معه مرحلة جديدة من اتقان البشرية لزراعة الأرض واحتلالها لبعض المساحات خاصة الصالح منها للزراعة، فنتج نوع من العلاقات الاقتصادية التي تفرض ارتباطاً أقوى بين الجماعات، وارتباطاً مباشراً ثابتاً بالأرض - فبرزت فكرة الجماعة والوطن البدائي.

وبمرور التاريخ وباكتساب العقل الانساني لامكانية أكبر في حقل الابداع، وبسبب تراكم التراث والتعقيد البشري، وصلنا الى فجر العصور الحديثة الذي يحدده علماء التاريخ باكتشاف أميركا... بيد أن المرحلة الحقيقية لهذا الفجر هي اختراع الآلة الحديثة وتطبيقها واختراع الطباعة التي مكّنت من انتشار الثقافة، والعلوم ومكّنت الرأي العام من الاطلاع وتبادل النظريات والآراء عن طريق الصحافة والكتب، الى أن نصل أخيراً الى بدايات القرن العشرين حيث انضاف الى الاختراعات السابقة اختراع الكهرباء الذي مهد لمرحلة جديدة من مراحل تطوير الصناعة، وازدادت الروابط بين البشر وازداد العلم، فوصلنا الى عصر مكنته الآلات وفق العلوم الحديثة وتطبيقها. هذه المكنته ساعدت وستساعد على تطوير العلاقات البشرية وتكاثفها. والجماعة تتمثل في هذا المنظار المتصاعد على الدوام، فأول ما نريد على وجه الأرض هو ترابط الانسانية وتجمعها.

٩ - لماذا قامت التقدمية الاشتراكية في لبنان؟

□□ مبررات قيام التقدمية الاشتراكية في لبنان هي ذات المبررات التي جعلت الاحزاب التقدمية تنتشر في جميع أنحاء العالم، لأن العالم عاش فترة طويلة في وضع يسميه بعض الخبراء فترة جود، لأن المجتمع كان جامداً لا يتحرك، فلما جاء العلم وجاءت الطباعة السريعة وأخذت التكنولوجيا تنتشر، وأصبحت المواصلات البحرية سهلة الى جميع أنحاء العالم، ومن جراء ذلك تطور انتقال الأفكار والبضائع، فكان لا بد لهذه المجتمعات أن تتأثر بذلك فدخل اليها مفهوم التطور، أي مفهوم التبديل في القيم. فأضحى مفهوم التبديل هو المفهوم الأساسي في العالم المعاصر. واذا تطورنا بالبحث نرى أنه في العصر الذي تعيشه بعض الدول المتقدمة جداً، حتى الاتحاد السوفياتي، أخذ يشعر بثقل هذا التطلب، هذا الحافز في هذه الحقبة التي تتمعدى الحقبة الصناعية اذ أخذ مفهوم التبديل يلعب دوراً رئيسياً أكثر فأكثر، لأن هذه المجتمعات الجديدة قائمة على فكرة الاستهلاك لا فكرة الحاجة، ولا بد للمجتمعات الاشتراكية اذا أرادت أن تلتزم التطور وأن تقبل التحدي من أن تتحول الى مجتمعات استهلاك، فنحن لا نزال في الشرق وفي لبنان دون المرحلة التمهيديّة لقيام اقتصاد صناعي، وما زلنا في المرحلة التي تتقدم قبل المرحلة الصناعية بحد ذاتها، وطابع التخلف الذي نعيش فيه هو من جهة أخرى حافز للمثقفين والجماهير أن يقتدوا بالدول المتقدمة، وأن يخرجوا من الاقتصاد المحض زراعي، الى اقتصاد خدمات واقتصاد نامٍ بازدياد أكثر فأكثر. هذه هي الأسباب الرئيسية التي بدلت من شأن الكون بأسره وجعلت تبني التقدم في كل شيء، لأن هذا التقدم يمكنه أن يقدم لنا تحمراً، صغيراً أو كبيراً، نسبياً في حياتنا المادية.

١٠ - معنى الديمقراطية الاجتماعية

□□ تعني الديمقراطية الاجتماعية اطلاق روح المساواة والأخوة بين المواطنين، وهي نتيجة للنزعة الجماعية

الواقع، هو غير عقلاني في كثير من تصرفاته. واعتبر النازيون ان الحضارة الغربية مقبلة على الانهيار لأنها اتبعت طريق العقلانية (Rationalisme) فهذه الطريق بنظرهم، توصل الانسان الى الانهيار كما حصل في أيام أرسطو واليونانيين المتأخرين حيث حولوا أفكار الناس عن «اللاعقلانية»، فكان هذا برأي الجرمانين السبب في بدء انهيار اليونان القديم.

انطلق الجرمان من «مبدأ تفوق العنصر الجرمانى وضرورة المحافظة على نقاوته وسلامته»، واعتبروا أن حضارات العالم الفاعلة ومنها الحضارة اليونانية، هي حضارات آرية نتيجة للموجات البشرية الآرية التي قدمت الى اليونان عن طريق الحروب. فالنازية قامت على مسحة الذهنية السحرية التي كانت تنبثق من هذه المفاهيم اللاعقلانية وتحرك قيادة الحزب النازي للديمقراطية اللاعقلانية التي ظهرت في المجتمع الالماني حيث تشكل الجرمانية آخر موجات الآرية، وهكذا تعود النازية الى التراث الجرمانى القديم لتنبش كنوزه وتستوحي معالمة لدى الألمان ولتوقظ الاستعدادات الوراثة لكي تنطلق منها هذه الاساطير من جديد.

وحيث انها موجة قومية عنصرية كان على النازية أن تحارب النزعات والحركات التي تنطبع بطابع الانتشار خارج حدود الجماعة ومنها ما كان يسميه الالمانيون بالأممية اليهودية (internationalisme juif) التي تنزع بطبيعتها الى التلاقي عبر الحدود، والأممية السوداء أي أممية الكنيسة الكاثوليكية (L'universalisme catholique) وأممية المثقفين والمفكرين (Le Cosmopolitisme) والأممية الماركسية الشيوعية (Internationale Communiste) التي يواجهها النازيون بمفهوم الاشتراكية الوطنية وأممية الرأسمالية المحتكرة الدولية.

فاعتبر النازيون أن اليهود هم من أصل سام ومن مذوي حضارات العالم، ونظروا الى الكنيسة الكاثوليكية كأنها نزعة الى العالمية أو الأممية، فأخذ هتلر يسعى لتقويض صرح الولاء لروما، لأن هذا الولاء يتناقض مع

والثورة السياسية التي قامت لتحرير المواطن سياسياً واجتماعياً، وقد تجلت هذه المفاهيم في الحركات والثورات الكلية (Totalitarisme) الجماعية التي قامت في أوروبا منها ثورة أكتوبر الروسية. أو الثورات النازية والفاشية والكوربوراتية المقابلة، وكذلك الحركات السياسية الديمقراطية الاشتراكية في أوروبا الغربية وفي العالم، ونلاحظ أن جميع ثورات العالم تدّعي الديمقراطية، حتى الديكتاتورية منها، كالثورة النازية والاطالية. وهذه الثورات والحركات السياسية كانت تعبر عن الوجه الجماعي للإنسان المواطن في مواجهة فردية الثورة الفرنسية.

هذا الوجه الجماعي المواجه للفكرة الفردية وللنزعة الفردية للإنسان، لم يكن جديداً في أوروبا مع هذه الثورات والحركات، إنما كان يمتد بصلبة الى الأنظمة السياسية القديمة التي عرفها اليونان وسواهم. وإلى أنظمة القرون الوسطى، فالطابع الجماعي كان طابع الحضارات القديمة، ولم تُعرف الحقوق الفردية في ذلك الوقت، فلم تظهر إلا نسبياً وبشكل محدود غير شامل بكليتها، في فلسفة اليونان القديمة وروما، وفي أفكارهم السياسية، ونذكر على ضوء ذلك معنى قول برديايف (Berdiaeff) أننا دخلنا مع هذه الحركات الثورية الجماعية مرحلة أخرى في القرون الوسطى الجديدة.

وتعود الديمقراطية الغربية الحديثة الى اليونان والتشريع الروماني، مما أدى الى انطباع الثورات الأوروبية الغربية بالطابع الروماني - اليوناني الأصل، فقد كان سقراط ومفهوم الرواقية والمسيحية داعين للمساواة والأخوة الانسانية. فالثورات الغربية الكلية الجماعية ومنها النازية قد تعدت الحضارة المسيحية ومفهوم اليونان والرومان للانسان الفرد المواطن، وللجماعة الديمقراطية، فالنازيون يعددون الى التقاليد والأساطير الجرمانية، بحيث أن هذا المفهوم وهذه النزعة سمي بالحركة اللاعقلانية، إذ كان تفكيرهم يشدد على حالة «اللاوعي» عند الانسان، لأنه كما لاحظوا، وكما هو

تعالم هتلر بالنسبة للمناقبية الجرمانية.

والفكرة الثالثة التي حاربها هي الفكرانية الديمقراطية التي تنزع الى معالجة كل شيء على أساس التقوم العقلي، وعلى هذه الأسس قامت محاولة تطالب بأهمية الدولة والجماعة وغلبتها على الفرد المواطن. واعتبر النازيون ان الدولة والجماعة هما الأساس وليس الفرد، وانتقلوا الى الجماعة القومية التراثية العنصرية. كما أن الماركسيين اعتبروا الدولة بأنها الطبقة المسيطرة على الاقتصاد، وليست هي الظاهرة الدائمة للمفهوم القومي الملازم لكل مجتمع، والتعبير عن كينونته.

كانت التجربة الجرمانية تعتمد على أصالة الشعب الجرمامي وتفوقه بالحضارة وبالقوة العقلانية على غيره من الشعوب، وعلى ضرورة احياء التراث الجرمامي من أجل بعث هذه الديمقراطية بأصالتها. وتبنى الجرمان نزعة التطور العلمي، النبساني والحيواني والانساني، وتوجهه بالضرورة الى ابراز النخبة في المجتمع. وهذه النخبة في رأيهم هي الشعب الالمانى الذي يجب أن يحكم العالم، ويسيطر على بقاء العلم والحضارة.

في هذا الجو الأسطوري - الذي هو انعكاس لما في باطن الانسان - قامت هذه الديمقراطية وتركزت على فكرة ابراز النخبة وتوجهت الى مفهوم تنقية الجنس البشري وبشكل خاص العنصر الجرمامي وحاولت تطبيق الأسس العلمية لقواعد الوراثة على الانسان وأرادت أن تعود الى هذه الحقيقة التي أنكرتها الديمقراطية السياسية لأن الانسان هو وليد خلاياه، كما ترتبط صورة الانسان بالخلية الأولى التي تنطلق منها وكانت مستبطنة فيها. وكان لا بد أن ينطلق هتلر بهذه العقلانية الى تصورات خيالية أودت به الى لون من جنون العظمة والقدرة اللامتناهية، اذا أصبح يؤمن ايماناً مطلقاً بنفسه وبقدرة الشعب الالمانى، وانتهت الرواية بموت هذا الرجل الذي يعتبر في الواقع من أكبر رجالات العصر الحديث.

وعرف الماركسيون خطأ هذا اللاوعي بأنه نتيجة للكبث الطبقي، والحقيقة أن هذا اللاوعي هو وجه من وجوه الانسان كما تدلنا الدراسات المتطورة للظواهر

النفسية ويمكن تعدي هذا المستوى بالترفع بالطاقات اللاعقلانية، الى مستوى العمل والتأمل، لا بالكبت، فيتحول هذا الحصر الترفعي للفكر الى مصادر أخرى للطاقة، بالمبدأ الأساسي هو أن طاقة الانسان النفسية هي كالطاقة المادية خاضعة لمبدأ السببية والضرورة وعدم الزوال، ولا يمكنها أن تنفذ مهما تغيرت، فهي ذاتها أبداً. وتكمن الفائدة من درس هذه النظريات النازية وما تفرع عنها باعلان الحقائق التالية: لا يمكن أن تفصل كينونة الانسان الجسدية والعقلية وانتاجه عن كونه حيواناً ذا جسد معين، أي مجموعة عضوية من الخلايا لها تاريخها الوراثي، فبقدر ما يكون جسد الانسان سليماً أي بقدر ما يكون له من الطاقات النفسية والعقلية السليمة، يستطيع أن يؤسس مجتمعاً سليماً وحضارة سليمة. فقواعد الوراثة العلمية التي وضعها مندل (Mendel) يجب أن يحترمها الانسان.

فواجب الدولة هو المحافظة على سلامة النسل، لأن سلامة النسل البشري هي الأساس في بناء المجتمع السليم، وبناء الديمقراطية السليمة هو أساس لتكون الحضارة نفسها. ان الانسان السليم هو الذي يتخلص من هذا اللون من الازدواجية، وهذا ما أخذ به الحزب: تنقية النسل البشري بأساليب حديثة تتعد عن العنف وتسير على أساس تشريع قانوني سليم، وهذا مما يؤدي الى ابراز النخبة في المجتمع وتطويره الى رقي المجتمع ذاته، وتصبح الدولة السياسية قائمة على أساس الكفاءة وليس على أساس «التسلط». والثورة هي في النهاية تصعيد هذه النخبة الى مستوى القسيادة في جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية. لكن هذه النخبة لا تعني فقط النخبة العقلانية، لأن الفكر هو وجه من أوجه حياة الانسان. لذلك ينبغي علينا الأخذ بالمفهوم اليوناني للنخبة أي: تربية الانسان وصفقه بالمنطق العقلاني الجديد للعلم والتوجه الى تهذيب عاطفته ونفسيته، والى ابراز شخصيته بكل ما في هذه الشخصية من تفتح، ويكون القائد من هذه النخبة. ان هذا المفهوم السقراطي الأصيل، الذي نجده في حضارات مصر القديمة والهند

والمفهوم الرابع والصحيح للنظرية الجماعية النازية هو أهمية الدولة في تكوين المجتمع. فالدولة لا تزول بزوال الرأسمالية كما كان يعتقد ذلك خطأً ماركس. انما المظهر والتعبير الطبيعي لإرادة وشخصية الجماعة. كما أن العلوم في العهد النازي قد أبرزت النظريات الصحيحة جداً بما يسمونه بالجغرافيا السياسية^(١١) التي بدونها لا نستطيع أن نفهم تطلعات بعض الشعوب وسياستها إلا انطلاقاً من واقعها الجغرافي والسياسي.

١١ - في مواجهة الانسان

□□ الحياة طاقة مترفعة من الطاقة المادية، والطاقة النفسية طاقة العقل هي طاقة مترفعة من طاقات الحياة. ومن خصائص طاقات الحياة انها تولّد كائنات قابلة بجد ذاتها «للمو الذاتي»، وهذا ما لا نراه في مستوى المادة. بمكنة كل كائن حي أن يعطي كائناً حياً آخر، لأن الخلية الأصلية عند الحيوانات ذات الخلية الواحدة وفي الخلايا الوراثية للانسان، من مواجهة الاستمرار والانقسام، هي دائمة شبه أزلية لا تقبل الموت. وفيما بعد تتجمع الخلايا في تركيب أعلى وتقوم مجموعة منها بوظيفة معينة، فتتكون الحيوانات ذوات الخلايا المتعددة والحيوانات العليا وتبرز بعض الأعضاء المتخصصة في التناسل واذ ذاك تموت بقايا خلايا الجسد على التوالي أو عند حدوث الموت، بينما يتوارث الانسان الخلية الوراثية المنقسمة على ذاتها فتنتقل هذه الخلية من الأب أو الأم الى الطفل، وهكذا الى ما لا نهاية الى أن ينقرض النسل في أحد الأيام لأسباب طبيعية أو غير طبيعية.

ويظن ألكسيس كاريل أننا عندما نرتفع الى مستوى الكائن ذي الخلايا المتعددة يبرز تدريجياً وبتصاعد مطرد مركب نفسي جديد وكأنه تمويصاً عن ديمومة تلك الخلايا الأولى البانية: هو الشخصية البشرية. فالشخصية في الانسان وتمتعه بها قد تكون تعويضاً للفرد عن ظاهرة موته.

هذه أول صورة لمظاهر الحياة.

ومن خصائص الحياة أيضاً أنها تكون عالماً مغلقاً

والصين، قد طبع الحضارات بطابعه منذ أقدم العصور. وهذه التنمية المنسجمة المتناغمة للانسان هي المرتكز الحقيقي لكل ديمقراطية صحيحة، لأن الديمقراطية الصحيحة تكون «عضوية» أي أن ينتظم الافراد، كل في حقله، ووفق كفاءته الطبيعية والمكتسبة ووفق نشاطه في المجتمع، وأن يكون لكل انسان أهميته ودوره ووظيفته الاجتماعية في تنظيم المجتمع وتطويره. هذا هو المفهوم الصحيح السلم للديمقراطية الاجتماعية... هذا بموازاة الفكرة الخاطئة للانسان التي أبرزتها الديمقراطية السياسية الغربية والماركسية على السواء.

والمفهوم الأساسي الآخر الذي قامت النظرية الجماعية النازية والفاشية والكوربوراتية بتحويله هو أنه خلافاً للنظرية الماركسية، أن للمجتمع شخصية معنوية قائمة بجد ذاتها منبثقة من تراث وتاريخ الجماعة وتتجلى بالمفهوم القومي للجماعة.

فالقومية ليست مظهراً من مظاهر الرأسمالية البرجوازية المتطورة كما كان يعتقد ماركس ولكنها هي مركب معنوي تشخص فيه روح الجماعة، وماهية الجماعة. فالقومية بالنسبة للمجتمع هي تماماً كالشخصية وكالتسمية بالنسبة للإنسان الفرد.

فتناقض القوميات هو تناقض أساسي لأنه يبرز من ماهية الجماعة ذاته، ولأنه لا يوجد مجتمع بشري بدون قومية. وطبعاً تتطور القومية بتطور مفهوم الدولة والحضارة وعبر التاريخ. ولكنها تظل طابع الجماعة المميز.

والمفهوم الثالث السلم في النظرية الجماعية النازية هو أهمية النخبة في تكوين المجتمع والحضارة. فلولا النخبة التي يجب أن تفرزها الجماعة، لظلت الجماعة بدون هيكل وبدون تطور وبدون حضارة وبدون روح. ولذا يشدد الحزب التقدمي الاشتراكي في ميثاقه على فكرة النخبة القائدة المسؤولة والمساعدة في تكوينها وابرازها، لأن الأنظمة تصلح بصلاح النخبة وتفسد بفسادها... وليس للجماهير. كما كان يتصور خطأً ماركس - أي قدرة على الخلق والابداع إن لم تنظمها النخبة في عقد وسلك التطور والنشاط والابداع.

أو أنها أي هذه الطاقة النفسية، ذاتها تولد مفهوم وحيز الزمان، فالزمان والفكر لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ومفهوم الزمان هو من انعكاسات فكرنا على الخارج... وهكذا يتصور العلم الحديث الزمان في مفهوم النسبية (Relativisme)؛

هـ - الارتفاع الى حرية العمل، والترفع عن قدرية الغريزة لدى الحيوان. فالعقل هو تطور وترفع للغريزة. هذه الخصائص الست هي مجلى الترفع، لطاقة الحياة زمنياً، وهذه الطاقة النفسية هي طاقة كاسثر الطاقات التي تتشخص في ظهور الكون. هي الطاقة الأخيرة والصحيحة التي يفرزها الابداع. لذلك فالمادة والروح من هذا المنظار هما مظهران «للكون»، للتكوين؛ والفكر والحس شيء واحد في المعرفة، والمعرفة هي أعلى المراتب الفكرية؛ ونحن قادمون على عصر من التوعية جديد بسبب انتشار العلم والوعي، ويسمى ذلك تيلار دي شاردان بالطبقة العرضية.

وفي الأصل في الواقع كانت الطاقة بسيطة جداً «لدنية» على حد تعبير الحكماء هي لون مستبطن لهذا الشيء الجديد - البلاسما الذرية كما يسميها العلماء المصريون حيث تنعدم الحركة الظاهرة بانعدام الذرات وجزئيات الذرات... فالمادة اذن لا تشبه في أي حال ما تتصوره حواسنا عنها من جهود وامتلاء...

فالتكوين يبدأ من تركيب العناصر البسيطة: الهيدروجين في أدنى السلم التركيبي، وكلما ارتفعنا ازداد عدد الأجسام المادية البسيطة (غير المركبة)، وكلها تخضع لقاعدة فيثاغورس العددية، الى أن ننتقل الى مستوى الأجسام الثقيلة. فالعدد، بنظر فيثاغورس، هو أساس الكون؛ وقاعدة العقل البشري تقول: الواحد في أساس الكون، والواحد يبرز منه اثنان بواسطة الاستقطاب.

وهذه ظاهرة لا نستطيع أن نفسرها، لا نستطيع أن نعرف لماذا ينتج عن البلاسما سلبى وإيجابى بينما البلاسما مجد ذاتها غير سلبية وغير ايجابية. ان ماهية الأشياء ما تزال مغلفة، انها معطيات، وتيار الحياة يبرز ويتشعب كلما

ومستقلاً مجد ذاته بينما لا نرى هذا الأمر في مستوى المادّة التي يمكننا مزجها بمادّة أخرى دون أن تفقد خواصها، بينما لا يمكن ذلك في مستوى الكائنات الحية والانسان. فلديه وحدة من التنظيم والتركيز والانسجام، هذه الوحدة لا تتعرف الى بعض القواعد أو السنن التي تخضع لها المادّة العادية. ان مبدأ الكائن الحي يتناقض مع مبدأ الانخفاض التدريجي للطاقة وضياعتها، وفي الكائن الحي قوة تنطلق من مستوى الطاقة الفيزيائية - الكيميائية وترتفع بها الى مستويات أخرى هذه القوة تستخدم المادّة الكيماوية وتحولها الى حركة). وفي الحقيقة نرى أن ظاهرة التوالد هي المستوى الفاصل بين الخلية الحيوانية وبين المادّة - وقد يُحدث ذلك، بشكل بدائي، ما يسمونه بالبلوريات - فالظاهرة البلورية تشبه الى حد ما بتوالدها الطريقة التي تولد بها الكائنات الحية، والعلم لم يقرر بعد اذا كانت الميكروبات البلورية حيّة أو مادّة مجد ذاتها، أم هي الفاصل الطبيعي بين المادّة والحياة، اذا كان هنالك من فاصل... وفي الواقع لا يوجد فاصل في المعنى المطلق والعادي للكلمة.

أ - من خصائص الطاقة النفسية:

١ - انها تنعكس على ذاتها في الوظيفة التي نسميها فكر الانسان أو ذهنه (Mental).

٢ - انها تتمتع ببعض الاستقلال بالنسبة الى ذاتها: فأنا الشاهد للأفكار وللتفكير، وأنا المفكر والشاهد للأفكار في آن واحد. هذه الازدواجية أو الثنائية الداخلية هي في مصادر تكوين الطاقة النفسية ذاتها فيحصل نوع من الاستقطاب بين الشخص المدرك وبين أغراض الادراك. وهذه من مظاهر الحياة الفعلية دون سواها.

٣ - تشرف الطاقة النفسية على مقام رفيع آخر هو ظاهرة الوعي، ظاهرة اليقظة، فالانسان يعرف أنه يحيا وأنه يموت، بينما الحيوان لا يعرف ذلك، انه يعيش في وجودية الحياة ذاتها دون أن يعيها.

٤ - يتحكم الزمان بالطاقة النفسية - وليس المكان - ،

ارتفعنا في سلم هذا التركيب والتعقيد. وثم يبرز العقل مع الانسان.

ب - الحياة مرتبطة بتركيباتها وبتطور المادة ذاتها وكذلك الطاقة النفسية:

١ - تنطبق على الطاقة النفسية قاعدة ديمومة الطاقة. فكل بحث لهذه الطاقة يتحول في البقطة أو في الحلم الى نتاج تعويض، لهذا السبب للأحلام أهمية كبيرة في تشخيص أمراض الناس النفسية (لماذا يرى الإنسان في الحلم أن ثمة من يلاحقه؟). المهم جداً في تربية الناس هو أن تتمكن من إزالة ظواهر الكبت وتحويلها الى نشاط عقلي أو مادي أو روحي.

يجب ان نزيل الكبت ونستبدله بالعمل وبالوعي وبالتأمل وبالمعرفة... فهناك ارتباط اساسي بين المادة الحية وبين الطاقة النفسية. هي ذاتها ولكن بشكل آخر في النهاية.

٢ - تنطبق على الطاقة النفسية قاعدة السببية ويوضح ذلك، بعد الهند والصين القديمة، أبحاث يونغ (Jung) وتحليلاته واختياراته. وقد ورد في أحد الكتب الهندية المقدسة قبل خسة آلاف سنة من أيامنا: «كما يفكر الانسان كذلك يصبح»، لأن شخصية الانسان تتكون من جميع أفكاره ونزعاته السابقة وهي شخصية تتبدل دائماً بتبدل الوارد اليها، رغم أنها ذات كيان وحدوي زمني استقطابي خاص. نحن نموت ونحيا في كل لحظة بسبب التبدل، ولهذا يقولون في علم النفس أن الفكرة تجذب فكرة أخرى والحقيقة هي أكثر من ذلك: ثمة ما يربط جميع الأفكار ببعضها البعض، انه اللاوعي. يقول القديس بولس: لا يخضع الانسان للمكان والزمان فقط بل يخضع لشيء أعمق من ذلك، يخضع لقياس العمق.

٣ - إن توتر الطاقة (La tension de l'énergie) هو الذي ينقل الطاقة من مجرد الامكانية الى مستوى الفعل، ويسمي العلماء العصريون النفسية البشرية بأنها توتر مستقطب (Tension polarisée) ومع الاستقطاب توجد حكماً ظاهرة التوتر. وتخضع هذه الطاقة لقاعدة التأليف

بين التناقضات (وحدة الأضداد) والتناقض يحدث في نطاق التكامل (Complementarité)، وهذا ما كان يتنبه اليه كارل ماركس. ولا يمكن أن نجد شيئاً في الوجود لا يخضع لقاعدة جدلية التناقض ولا يخضع في آن واحد لهذا التكامل الحتمي، فالوحدة الأصلية المولدة لهذا التناقض هي التي تحافظ على هذا التكامل والا لبطلت الحركة وبطل التطور. فالجتمتع ذو الطبقة الواحدة كما يتصوره الماركسيون هو خرافة... لأنه يبطلان التناقض الاجتماعي، تبطل الحركة في الجتمتع، يبطل الجتمتع ذاته.

٤ - قاعدة الحصر: كما نستطيع أن نرفع وتيرة الطاقة الكهربائية، نستطيع حصر الطاقة النفسية ورفع وتيرتها، فالمعجزات والمعجائب ليست بمعجزات ومعجائب لأنها ناتجة عن حصر الطاقة النفسية.

ج - وظائف العقل الذي هو مجلي الطاقة النفسية:

١ - وضع نظام للأشياء من خلال تبيان علاقاتها ببعضها البعض، ثم نظم هذه العلاقات في اطار وحدة منسجمة، وهذا ما يولد ظاهرة الجتمتع البشري. لأن العقل البشري يستطيع أن يكشف عن علاقات الأشياء وارتباطها بعضها ببعض ولكنه لا يستطيع أن يعرف ماهية الأشياء في المستوى العادي العلمي لا في مستوى العرفان.

٢ - تفرض ظاهرة تنظيم الأشياء وتبيان علاقاتها أن يستطيع الانسان ممارسة وظيفة التمييز، وهي التي تبعد نظام الاخلاق والقانون، الخير والشر، الجميل والقيح. (في مستوى الحيوان لا يوجد وعي للأخلاق).

٣ - وظيفة الرمز: هذا الرمز نراه في مختلف مستويات الحيوان، ولكنه يبلغ ذروته في مستوى الانسان، فوظيفة خلق الرموز هي التي تمكن الانسان من ابداع اللغة. والانسان يتوصل الى هذا الرمز عن طريق التناقل، والمقابلة، وظاهرة الرمز هذه هي من أهم خصائص الطاقة النفسية في مستوى الانسان.

٤ - ابداع واختراع الأسطورة: ان الدين هو وليد هذه الأسطورة بالمعنى التاريخي السليم للكلمة، فقصاص

الذي يتضمن لونا من التقدمية، وبين الاتجاه الانعزالي الطائفي. والشعب يدرك أهمية تطوير هذا الاتجاه التقدمي، بالرغم من أن بعض السياسيين القدماء والجدد لا يدركون أهمية هذا الانشطار.

فاذا وضعنا مفاهيم التقدم والوطنية العربية الصريحة، وكتلنا العناصر في سبيل تطوير هذه المفاهيم، نكون قد قدمنا أفضل خدمة للمجتمع اللبناني والعربي. اما خدمتنا للبنان فتكون بجعله ينشطر على أساس الوطنية الصافية من جهة والتبعية والعمالة من جهة أخرى، وبصهر الشعب اللبناني بدلاً من بقاءه على هذا اللون من التكاذب المشترك القائم بين مختلف الفئات اللبنانية بخصوص الوحدة الوطنية بمعناها السطحي. وأما خدمتنا للمجتمع العربي فتكون بالحوؤول دون جعل لبنان خطراً على العرب، اذ ان الاستعمار الجديد لا يمكنه الا أن يعود نظراً لديناميته وبسبب التناقضات العالمية ووجود اسرائيل بين ظهرانيها.

وما نحتاج اليه اذن هو تكوين الأجهزة الفاعلة لدعم هذا التيار التحرري وتفهم الناس وتكثيهم حول هذا المفهوم، ودفع التيار الشعبي المنظم الى مستوى لم يعرفه لبنان من قبل. وبدعم التيار التحرري الاجتماعي نكون قد قدمنا في مفهوم هذا التيار، المقاييس الحقيقية التي تحدد هدفنا وأبعاد تفكيرنا. ويلزم لهذه المحاولة في التنظيم الشعبي، الافادة من انتشار العلم بشكل لم تعرفه البلاد من ذي قبل، ومن شعور اللبنانيين بضرورة وضع خطة تنمية شاملة تتناول تأمين العمل للعاطلين عن العمل، وتستوعب اليد العاملة الجديدة البالغة سنوياً حوالي ٤٠٠٠٠، وتتناول حل مشاكل الانتاج الزراعي في التصريف والعون الداخلي، وحل مشاكل الصناعة وتطويرها لكي تلبي الحاجات المتزايدة الى العمل، وتتناول أيضاً تنسيق التعليم.

وعلينا أن نجعل مفهوم العروبة السلبية ينتشر في جميع أصقاع لبنان، فقد جاء نذير الخطر الأخير في ما واجهته البلاد من تظاهرات طلابية لدعم العمل الفدائي الفلسطيني، فرأينا لأول مرة قيام مظاهرات مضادة روحاً

التكوين كلها أساطير، لأنه يصعب على العقل البشري اعتبار أن الشيء يولد من لا شيء، وأن الله العادل يستطيع الشر، وكل ما لا يتوصل العقل الى تفسيره يسمه بسمة الأسطورة ويجد له تفسيراً يتعدى مفهوم العلم.

٥ - من طبيعة العقل التفتيش عن الحقائق في الخارج والداخل بواسطة العلم والفن والتأمل الروحي والدين على السواء.

٦ - الشخص أو خلق الشخصية: فالشخصية مرتبطة بتكوين العقل ذاته، وهي تواكب تطور الفكر ونموه (بالمعنى الواسع الشامل أي القلب والشعور، والفكر لا ينفصل عن الشعور والشخصية مبنية على الانسجام بينهما).

٧ - خلق المفاهيم والمثالات الاجتماعية والفردية (Les Archétypes) والمضاربات.

٨ - التفتيش عن الحقيقة الأخيرة (وهذا في العلم التجريدي - الدين والحكمة والعرافان).

هذه المواجهة النفسية للانسان هامة جداً ولا يمكننا تجاهلها كما يفعل الماركسيون. فالطاقة النفسية تشكل عنصراً آخر من العناصر التي لها ذاتية خاصة في سلسلة ابداع التكوين، ولولاها لما استطعنا ان نعرف شيئاً من الوجود، ولما استطاع هذا الوجود أن ينعكس فينا ويفهم ذاته من خلالنا. ولولا هذه النفسية البشرية لما كان المجتمع ولما كان المفكرون وأرباب النظريات، ولما كان العلم ولما كان التراث ولما كان التاريخ.

ان الشخصية البشرية هي النتاج الأخير للوجود، وهي تساج الوجود المتم للابداع وهي أثن رأسمال من الوجهة العملية. فالانسان يعود دائماً الى ذاته لتقرير مصيره، وبالتالي لتقرير مصير الجماعة، فمصير الجماعات يتقرر في أعماق وجدان الانسان.

١٢ - حول العمل السياسي والبرلمانية

□□ لبنان جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، وهو الآن يمر في ظروف غير عادية جعلت اللبنانيين ينقسمون بين الاتجاه التحرري والاجتماعي في الداخل والخارج،

وجوهرًا للفكرة العربية التي قام عليها لبنان . وهذه المشاكل وسواها تجعل واجباً على كل ذي بصيرة القيام بعمل دائب لإنقاذ لبنان من تناقضات ليس أقلها أن المسؤولين لا يتصورون بعد أن قطار التطور قد فاتهم ، وأن لبنان الغد ، لبنان المستقبل ، لبنان الجديد هو مستبطن في قوقعة لبنان القائم . من هذه البوتقة حيث تتفاعل جميع الطاقات يجب أن نسعى كالقابلة الماهرة لإخراج لبنان الجديد بجميع طاقاته الواسعة ، الذي يؤمن الحبز والعمل للجميع ، ومستوى إنسانياً من المعيشة ، وحياة في بلد لا يكون ملجأ ، بل وطناً بكل ما لهذه الكلمة من معنى واعتزاز .

فاذا ما حاولت هذه الردة التي نواجهها - والتي هي هرطقة سياسية - أن تعيدنا الى ليبرالية تقليدية وأن تكسر انقسام لبنان طائفيًا ، فإن قسماً كبيراً من اللبنانيين لا يعمدون يشعرون بأي رابط يربطهم بالدولة هذه ... نحن أمام صراع : لبنان الطائفي يريد أن يقيد انطلاق لبنان التقدمي التحرري ، لبنان الاحتكار والامتيازات (رجال الدين والسياسة والمال) يقيد انطلاق لبنان الديمقراطية الشعبي المؤسس على فكرة العدالة والمساواة الوظيفية ، لبنان اللبناني يقيد لبنان العربي . هذا الصراع بلغ شأوه بعد النكسة ، وقد عرف العرب كيف يصمدون وينتقلون الى تنظيم صمودهم وعسى أن لا يتأخر بزوغ فجر النصر وحل قضية فلسطين المحتلة كما يريدونها العرب ، لكي نرى هذا الاتجاه الداخلي التحرري يتقوى عشرات الأضعاف ، ونرى أن الذين كانوا يتأمرمون على اتجاهنا سيتراجع بعضهم خشية أن يفوتهم الركب .

وفي رأينا لا ينفصل الطريق البرلماني عن الطريق الشعبي ، ولكن الطريق البرلماني له دور محدود : سد الطريق على الأخصام ومساندة جبهة الصمود الداخلية ، وأما الطريق الشعبي فهو الأساس . والسياسة هي تكييف المبدأ مع الواقع ، فهي دائماً تنطلق - خصوصاً السياسة المبدئية - من الواقع اللبناني ،

والواقع اللبناني يدلنا على :

- ان الشعب اللبناني غير واع تماماً ،
- ان قسماً من هذا الشعب اتكالي وله مصالح خاصة وعامة ،
- ان شعبنا بحاجة الى تقويم وعيه ورفع مستواه ...

هذه الاسباب كانت النية ضرورية في بعض المستويات ، لأنها على الأقل تجعل المواطن على أمل مستمر . لنفترض أن الوضع النيابي انقلب رأساً على عقب وزالت هذه الأقلية النيابية الصامدة ، فإن الناس ، نظراً للترسبات التقليدية سيعودون الى التيار الانعزالي . نحن في بلد يمثل فيه التيار الوطني العربي في أكثرية ساحقة من المسلمين وفي ٣٠ - ٤٠ / من مسيحي لبنان . هذا الوضع داخل المجلس النيابي اذا أضعفناه لصالح وجود كتل تدافع عنه داخل المجلس ، فيسقط الى اتجاه معاكس كما شاهدنا ذلك في العهد الشمعوني .

نحن في نكسة . ولو كنا في بلد منسجم بتكوينه وأوضاعه متسقة ، فربما يكون لاستقالة بعض النواب أثره ، نظراً لأخذهم مبادرة النضال الشعبي . هذه بعض الاعتبارات التي تجعلنا نفكر كثيراً في الاقدام على مثل هذه الحركات . فالمجلس بالنسبة إلينا منبر وحصانة ، فإذا ما انقلب الوضع النيابي نكون قد تخلينا عن دور لنا في البرلمان والحكومة ونكون كمن خرج من الدار وتركها فارغة لغيره . والبرلمان لا يحقق أهدافنا ولكنه أداة ضغط ويؤمن بعض الحريات الشعبية ، ونكون بخروجنا من البرلمان قد خدنا الحلف^(١) خدمة كبرى لأنه لا يطلب سوى ذلك . السلبية في هذا المجال تفقدنا الكثير من النضال الذي نحن بصده : تحقيق مكاسب جزئية في كل الحقول ، تساعدنا على تحقيق بعض التقدم ، وأما السلبية المطلقة فستزيد بنظرنا الانقسام الطائفي ، كما أنه يجب علينا أن نبذل جهداً أكبر في التنظيم الشعبي ، لكي يكون هذا أداة الضغط على أرباب الحكم والسلطة .

الحواشي

- (١) Expériences idéalistes
- (٢) La Pensée utopique
- (٣) Le Nazisme Raciste
- (٤) Le fascisme corporatif
- (٥) Le Régime de Salazar
- (٦) La révolution de silence لا سيما نظرية اللاعنف والتجربة الثورية الصمت
- (٧) الأحزاب الاشتراكية في يورما وأوروبا الغربية، التي تشكل مدخلاً للطريق الثالث في السياسة الجديدة على الصعيد العالمي .
- (٨) La perspective biologique
- (٩) Le Père jésuite teilhard de Chardin.
- (١٠) راجع كتاب موريس غرنبيه، الحظ الأخير للعالم الثالث :
- (١١) M. Guernier, La Dernière chance du Tiers-Monde
- (١٢) La Géo-politique حلف شمعون والجميل الذي خرج منه ريمون إدّه .